تأصيل الأسلوبية في فكر عبد القاهر الجرجاني

عياد أم السعد[1]* ، أ.د . رزايقية محمود[2]
[1]-المركز الجامعي أحمد بن يحي الونشريسي ، تيسمسيلت
ayadom298@gmail.com
[2]-المركز الجامعي أحمد بن يحي الونشريسي ، تيسمسيلت
Abousoltane141@gmail.com

الإرسال: 2020/06/28 **القبول:**2020/12/02 **النشر:**2021/03/10.

الملخص: نسعى في هذه الدراسة إلى محاولة ربط الأسلوبية بالدرس البلاغي النقدي عند عبد القاهر الجرجاني(ت 471هـ)، وذلك من خلال نظريته الشهيرة ــ النظم ــ والتي أسس فيها لأفكار ومفاهيم تشابه تماماً ما ينادي به رُوّاد الأسلوبية اليوم.

فعبد القاهر في حديثه عن النظم وشعرية النحو، وحسن الاختيار والتأليف، وغرابة الاستعارة، و غيرها من القضايا يقترب بشكل كبير من ملامح الدرس الأسلوبي المعاصر.

قامت الدراسةُ بتطبيق المفاهيم التي توصل إليها الإمام عبد القاهر الجرجاني بقصد إيجاد علاقة بين التراث البلاغي النقدي والأسلوبية في اللسانيات المعاصرة، وذلك يعود لفضل نظرية "النظم" وما حققته من إنجازات في النحو والبلاغة والنقد، ثم ارتقى بها عبد القاهر إلى مستوى الحضور الدائم في النظريات اللسانية والأسلوبية المعاصرة.

الكلمات المفاتيح: النظم، التراث، البلاغة، النقد، الأسلوبية، اللسانيات.

Rooting stylistic in the thought of AL-JURJANI Abdul-Qaher

*المؤلف المرسل.

Abstract: In this study,we seek to follow Abdel-Qaher's rhetoric efforts to determine the issue of the Quranic miracle through hisfamous theory — system- «AL- nazm »(SYNTACTIC RHETORIC) in which he founded ideas and concepts that are quite similar to what stylists prospectors think today.

Abdel-Qaher in his speech of system, grammatical poetry, good choice, metaphor and other issues draws closeto features of the contemporary stylistic lesson.

AL-NAZM is difined by AL-JURJANI as relating in elements of speech oeach other making some dependent on others choosing the syntactic signification according to wich speech is composed.

Key words: AL-NAZM, Heritage, rhetoric, criticism, stylistic, linguistics

مقدمة: لم يعد يخفى على أحد من الدارسين العرب أنّ المنهج الأسلوبي قد أصبح أكثر المناهج المعاصرة قدرة على تحليل الخطاب الأدبي بطريقة علمية وموضوعية.

إنّ الربط بين الفكر اللّغوي العربي التراثي والدرس الأسلوبي الحديث قضية مفصلية شغلت الباحثين العرب لأمد طويل ، وقد يتبادر إلى ذهن القارئ أنّ ما نرمي إليه من بحثنا هذا لا يتوافق مع مقتضيات الفكر الأسلوبي المعاصر ؛ ذلك أنّ محاولة الربط بين فكرين حضاريين معرفيين مختلفي النشأة والظروف والتاريخ يبدو غير مهمّ.

ومن هنا تتأتّى أهمية هذا البحث. فالمطّلعُ على التراث العربي والفكر الغربي يجد جملة من اللقاءات والتقاطعات المعرفية بينهما في الكثير من الرؤى والأفكار ، وهو الأمر الذي دفعنا إلى الخوض في هذا الموضوع ، وذلك لوضع تصوّر شامل للعلاقة بين القديم والحديث ، ممثلين له بما قدّمته نظريةُ "النظم" عند عبد القاهر الجرجاني ، حيث فرضت نفسها كنظرية نقدية حداثية تتلاقى فيها الأفكار وتتواصل من خلالها الأجيال .

لقد بدأ عبد القاهر كتابه(أسرار البلاغة) بالحديث عن اللفظ والمعنى ، وبعض صور البديع ، ثمّ تكلّم عن الاستعارة والتمثيل والتشبيه ، وختم كلامه بالحديث عن الحقيقة والمجاز ، باحثاً فيها عن مفهوم الأسلوب وسماته.

كما احتوى كتابه(دلائلُ الإعجاز) على القواعد الفنية والجمالية للبلاغة ، معتمداً على قواعد أسلوبية عملية تعينُ على فهم النصّ.

ولذلك تأتي أهمية هذه الدراسة في أنها تربط منهجاً نقدياً حديثاً ، وهو " المنهج الأسلوبي" بالجذور البلاغية والنقدية في تراثنا البلاغي والنقدي ، إذ لم تنل هذه الدراسة حقها من الاهتمام ، وأنا أحاول وضع تصوّر واضح للعلاقة بين ما أنجزه عبد القاهر الجرجاني والمنهج الأسلوبي الحديث.

أولاً: الفكر الأسلوبي لدى عبد القاهر الجرجاني:

يلحّ الكثير من الباحثين العرب على ربط التراث باللسانيات الحديثة ، بإيجاد نقاط تلاقيهما ، و مد الجسور لخلق التواصل بينهما ، "فمن الإنصاف أن تكون هناك مقابلات لغوية علمية بين ما جاء به المحدثون[2] وما توصّل إليه الأقدمون من نتائج و حقائق علمية ، لبيان الصلة بين الطرفين ، وصولا إلى تأسيس عناصر القراءة التجديدية للقديم الذي تركه لنا الأسلاف ، ومن ثم إثبات ديمومة الموروث اللغوي وحيويته ورصانته بالرغم من المدة الزمنية التي مرت عليه"[1].

فقد أثمرت جهودُ علماء العربية القدامى أمثال سيبويه وابن جني والجاحظ وعبد القاهر الجرجاني وغيرهم في التأسيس لنظريات لغوية كشفوا فيها عن طاقات العربية ، ووقفوا فيها على حقائق مهمة أكدتها اللسانياتُ الحديثةُ ، حيث بيّنت أنهم كانوا على وعي تامّ بما هو حديث الساعة اليوم.

لقد احتلّت البلاغةُ العربيةُ منذ القدم مكانة مرموقة بين غيرها من العلوم ، فبرع فيها الكثيرُ من علماء العربية الذين ناقشوا قضايا فصاحة الكلام وبلاغته ، وبحثوا في سرّ الإعجاز القرآني متجوّلين بين علومها ، كُلٌّ حسب فهمه الخاص ؛ يقلّبون الكلام كيفما يشاءون. وظلّت كذلك حتى العصر الحديث رغم ما واجهتها من شبهات وتقزيم من قبل بعضهم إلّا أنّنا نجد آخرين حاولوا الدفاع عنها وإعادة وَهجها من جديد ، فربطوا البلاغة القديمة بمفهوم الأسلوب الحديث.

وقد استأثرت نظريةُ " النظم " عند الجرجاني بحظّ وافر من الدراسات والمقاربات اللّسانية والأسلوبية ، ونالت كتاباتُه وبحوثه اعتراف الكثير من علماء العربية المحدثين ، ودورها في

الإبانة عن مواطن الإعجاز القرآني وإثراء الدّرس اللغوي العربي ، فانصبّوا عليها بالدراسة والاهتمام ، واستطاعوا من خلالهما تلمّس ملامح اللّقاء والتوافق بين فكر الجرجاني واللسانيات بصفة عامة والأسلوبية بصفة خاصة.

يقترب الجرجاني في أفكاره التي صاغها في نظريته الشهيرة مما تنادي به الأسلوبية الحديثة ، "فليس من شك في أنّ الأسلوبية المعاصرة لا تكاد تختلف في كثير عن نظرية النظم العربية التي وضع أصولها الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتابه النفيس((دلائل الإعجاز))، و حين صاغ عبدُ القاهر آراءه في النظم لم يكن يُبعد فكرة اختلاف الأسلوب باختلاف ترتيب الكلام ، وجعل بعضه بسبب من بعض.

وكانت دراساتُ عبد القاهر في التقديم والتأخير ، والذكر والحذف ، والتعريف والتنكير ، والإضمار والإظهار. و كذلك دراساته لأساليب الحقيقة والمجاز ، والتشبيه والتمثيل والاستعارة.كان ذلك كله عملا جديدا في البلاغة العربية ، وتفصيلا واسعا للأسلوب ، وتحديدا قريبا من مفهوم الأسلوبية في المذاهب الغربية الحديثة"[2].

فعبد القاهر الجرجاني بأسسه تلك التي أسس لها في نظريته الشهيرة "النظم" يلتقي في الكثير من الأحيان بمبادئ الأسلوبية المعاصرة .

ثانياً: ملامح الأسلوبية في نَظْم عبد القاهر الجرجاني:

لعبد القاهر الجرجاني جهودٌ لا يستهان بها في هذا الميدان _ الأسلوبية_ ، يجب الاهتمام بها والوقوف عليها من خلال كلامه عن النظم والتعليق ، ودرجات الاستعارة والمنوال الشعري وغيرها ، فقد ناقش الجرجاني في دلائله الكثير من القضايا التي تميز أسلوب شاعر أو أديب عن آخر نوجزها فيما يلي:

1 ـ النظم:

أشار الجرجاني في تعريفه الأسلوب إلى النظم أثناء حديثه عن وجوه ومواضع الإعجاز القرآني ، وتفرّد أسلوبُه عن سائر كلام العرب بروعة نظمه وجودة تراكيبه وحُسن بيانه ورونق ألفاظه. فربط مفهومه بالنظم باعتباره نشاطا لغويا فرديا نابعاً عن اختيار ووعي خاضع لسلطة النحو ، ليبدع المتكلّم تراكيب وتآليف مختلفة للتعبير عن غرضه بأسلوب معين[3].

وهو ما يوضحه رومان جاكبسون في تعريفه للأسلوبية التي تبحث عن "ما يتميز به الكلام الفني عن بقية مستويات الخطاب أولا ، وعن سائر الفنون الإنسانية ثانيا."[4]، فالأسلوبية تهتم بخصوصية العمل الفني بعيد عن أنماط الخطابات الأخرى.

كما ركّز رومان جاكبسون اهتمامه على مبدأ"النظام والنظْم في اللغة" ، من خلال تركيزه على عنصرين: الاختيار المعجمي ، ثمّ عملية التركيب التي تقتضي قوانين النحو ؛ فالأسلوب يتحدّد بتطابق جدول الاختيار على جدول التوزيع ، مما يعزّز انسجاماً بين العلاقات الاستبدالية والعلاقات الركنية. والأسلوب يتحقق بتطابق جدول الاختيار على جدول التوزيع.

يُعرّف عبد القاهر الأسلوب انطلاقاً من تعريفه لمفهوم الاحتذاء ، يقول: "واعلمْ أن "الاحتذاء" عند الشعراء وأهل العلم بالشعر وتقديره وتمييزه ، أن يبتدئ الشاعرُ في معنى له وغرض أسلوبا_ و"الأسلوب": الضربُ من النظم ، والطريقة فيه_ فيعمد شاعرٌ آخر إلى ذلك الأسلوب فيجيء به في شعره ، فيشبه بمن يقطع من أديمه نعلا على مثال نعل قد قطعها صاحبها فيقال: قد احتذى على مثاله"[5].

فالأسلوب هو الطريقة التي يسلكها الشاعرُ أو المبدع في اختيار ألفاظه وتركيب كلامه لتصوير وتبليغ ما يدور في نفسه.

ويُمثّلُ الجرجاني لمعايير النظم وتميّز أسلوب شاعر عن آخر بالمطلع المشهور لامرئ القيس:

قفا نبْكِ منْ ذِكرَى حبيبٍ ومنزِلِ بسِقْطِ اللّوى بينَ الدّخُولِ فَحَوْمَلِ[6]

فيقول:" وتزداد تبيّنا لذلك بأن تنظر في القائل إذا أضفته إلى الشعر فقلت: (امرؤ القيس قائل هذا الشعر)، من أين جعلته قائلا له؟ أَمِنْ حيث نطق بالكلم وسمعتَ ألفاظه مِنْ فيه ، أم من حيثُ صنع في معانيها ما صنع ، و توخّى فيها ما توخّى؟ فإن زعمتَ أنّك جعلته قائلاً له من حيث أنه نطق بالكلم وسمعت ألفاظها مِنْ فِيهِ على النّسق المخصوص ، فاجعلْ راوي الشعر قائلا له ، فإنه ينطق بها و يخرجها من فِيهِ...فإن قلت: إنّ الراوي وإن كان قد نطق بألفاظ الشعر على الهيئة والصورة التي نطق بها الشاعر ، فإنه هو لم يبتدئ فيها النّسق و الترتيب ، وإنما ذلك شيء ابتدأه الشاعر ، فلذلك جعلته القائل له دون الراوي"[7].

الشطر الأول يمثل ظاهرة أسلوبية قائمة على اختيار الفعل(قفا) بصيغة الأمر ، و(نبك) الذي صار جواباً لفعل الأمر ، و(ذكرى ، حبيب ، ومنزل): كلّها أسماء يمكن استبدالها. فهي مفردات مرتبطة بعضها ببعض ، ولا يمكنها أن تشكّل ظاهرة أسلوبية إلّا حين ترتبط بتجربة الشاعر .

2- شعرية النحو:

جعل عبد القاهر النحو قلباً للنظم ، ومحرّكاً له ، فلا وجود للنظم ولا الأسلوب من دون نحو. وقد نوّه الكثيرُ من الأسلوبيين إلى أهمية النحو ودوره في تفسير النصوص وإيضاح الدلالات الكامنة فيها ، بحيث يرى رومان جاكبسون أنّ "القوة الشعرية للنحو قد لا حظها من قبلُ كلّ من اللغويين و الشعراء"[8].

وكذلك يرى جون كوين ، فيقول: "إنّ المصادر الشعرية الكامنة في البناء الصرفي والتركيبي للغة ؛ أي نحو الشعر ونتاجه الأدبي ، ونحوية الشعر لم يعترف بها من قبل النقاد إلّا نادرا ، وأُهملتْ إهمالاً يكاد يكون تامّاً من قبل اللغويين ، وعلى العكس فإنّ الكتّاب المبدعين عرفوا غالبا الاستفادة بجانب عظيم منها"[9].

لا تتأتّى المزيةُ أو الفضيلةُ في الكلم إلّا بمراعاة قوانين النحو ، ذلك أنّ العلاقة الرابطة بين المعاني والنحو علاقة وطيدة ؛ لأنه هو الذي يفتح مغاليقها.

إنّ الجرجاني في تحديده لمفهوم الأسلوب أعطى النحو حقه ،حيث أفاد من الإمكانات التركيبية في النحو ، واستطاع أن يوظّفها بشكل مباشر في محاولة خلق نظرية لغوية في فهم الأسلوب ،على اعتبار أنّ النحو يخلق النسق التعبيري الذي يحقّق المزية والفضيلة بجانب صحّة اللغة وسلامة الأسلوب.

لقد أفاد عبد القاهر الجرجاني مما أنجزه سابقوه من دراسات نحوية ، فاهتدى بفضل ما يقدّمُه النحوُ من إمكانيات كبيرة بالمفهوم الجمالي التركيبي إلى فكرة النظم. والأسلوبُ جزءٌ منه ،فاستحدث طرقاً فنيةً للربط بين المفردات وبين الجمل والعبارات ، وخلقَ دلالاتٍ متنوعةً تتوافق مع أغراضه وأهدافه.

وهذا يؤكّدُ أمرا هامّاً ؛ هو أنّ تركيب الصيَغ والعبارات شديدة الصلة بعملية الإبداع شعرا ونثرا ، كما أنّها أساسُ فهْم وإدراك مواطن الإعجاز في القرآن الكريم[10] ،فقد أشعل القرآن الكريم جذوة الدراسات اللغوية ، وأفسح فيها المجال للتميز والإبداع.

إنّ انتصار عبد القاهر للنحو وإقراره أنّ اللّغة علاقاتٌ تنتظم فيما بينها لتؤدي دلالة ، يقترب كثيراً من مفاهيم اللّسانيات الحديثة ، فهو حين فرّق بين اللّغة والكلام ، واهتمّ بالكلام اهتمّ أيضاً بالبلاغة ؛ لأنّ " البلاغة تعتني بما ينجزهُ المتكلّمُ بصفة فردية بالتصرّف في استعمال عناصر النظام اللّغوي ،والتأليف بينها بكيفية تحقّق أغراضه ومقاصده. فإنّ مقتضيات الاحتجاج والتعليل حتمت بدورها الحديث عن (اللغة) واتخاذها أساساً منهجياً وفرداً من زوج (اللغة / الكلام)"[11].

كما ناقش الجرجاني العلاقة بين اللّغة والكلام في صوَر تفضيل كلام على آخر ،ذلك أنّ المزية تعطى للمتكلّم الذي يتخيّرُ الألفاظ كما يتخير المعاني ، ويحسن تأليفها وصياغتها ، وليس إلى واضع اللغة. وبهذا شدّد عبدُ القاهر على أهمية التعليق ودوره في صحّة النظم وفساده ؛ ذلك أنّ المزية في الكلام لا تتحقّق خارج التأليف ، ولا بالكلمة مفردة داخل السياق أو التركيب ، بل تتحقق بضمّها إلى مثيلاتها وجاراتها وخضوعها لسلطة النحو.

فلتوخي معاني النحو عنده دورٌ مهمٌ في صحّة النظم وصوابه ، فعندما يعمدُ عامدٌ إلى بنية تركيب ويُزيلها عن الصورة التي أرادها المبدعُ لها ، ويُفسدُها عليه من غير أن يحوّلَ فيها لفظاً عن موضعه أو يبدّله بغيره أو يُغيّر شيئاً من ظاهر تلك البنية ، يصبح المعنى فاسداً ويبتعد عن قصد المنشئ لهذا الكلام ، ومنه بيت أبي تمّام :

لعابُ الأفاعي القاتلات لعابُه وأرْيُ الجنى اشتارتْهُ أيدٍ عواسلُ[12]

قد يفسد معنى هذا البيت أو يصحّ بما يتوخّى فيه من قواعد النحو ، أي بين جعْل (لعاب الأفاعي أو لعابه): مبتدأ (مسند إليه) ، أو جعْل أيهما شاء مسند إليه(خبرا).

ويشرح الجرجاني هذا البيت بتميّز كبير ، محلّلاً إيّاه انطلاقاً من غرض المتكلم وقصده حيث يقول إنّ :" (لعاب الأفاعي): مبتدأ ، و(لعابه): خبر ، كما يوهمه الظاهر ، أفسدت عليه كلامه ، وأبطلت الصورة التي أرادها فيه. وذلك أنّ الغرض أن يشبّه مداد قلمه بلعاب الأفاعي على معنى أنه إذا كتب في إقامة السياسات أتلف به النفوس ، وكذلك الغرض أن يُشبّه مداده بأري الجنى ، على معنى أنه إذا كتب في العطايا والصلات أوصل به إلى النفوس ما تحلو مذاقته عندها ، وأدخل السرور واللذّة عليها. وهذا إنما يكون إذا كان (لعابه): مبتدأ ، و(لعاب الأفاعي) خبرا"[13].

إنّ التركيب النحوي عند عبد القاهر الجرجاني نظامٌ متكاملٌ ؛ لأنّ استقامة الكلام وفساده يخضع للنحو ومعانيه.

ومنه أيضاً قول الشاعر :

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا بنوهُنّ أبناءُ الرّجال الأباعدِ[14]

إذ المبتدأ فيه (بنو أبنائنا)، والخبر (بنونا). والمعنى عنده : (جعل بني البنين بنيناً)، وتقدير الكلام : (أنّ أولاد أبنائنا هم بنونا أمّا بناتنا فإنّ بنيهن هم أبناءُ الرّجال الأباعد)[15] .

ومما سبق نجد أنّ السياق والمقام يقتضي في الأصل إعراب (لعاب الأفاعي) و(بنونا): خبراً مقدّماً لقيمة أسلوبية تعطي فائدة المعنى المقصود من قبل الشاعرين في نظمهما للبيتين الشعريين .

ويمثّل الجرجاني لتأثير علاقات السياق في دلالة المفردة بقوله تعالى:(وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِي وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)[16].

ففي هذه الآيات الكريمة تظهر وجوه إعجاز القرآن الكريم وفيها "تجلّى لك الإعجازُ وبهرك الذي ترى وتسمع. إنّك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة ، والفضيلة القاهرة ، إلّا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض ، وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلّا من حيث لاقت الأولى بالثانية ، والثالثة بالرابعة ، وهكذا إلى أن نستقر بها إلى آخرها ، و هكذا إلى أن تستقريها ، وأن الفضل تناتج ما بينها ، و حصل من مجموعها"[17].

إنّ السرّ في كون هذه الآية بلغت من الإعجاز والفصاحة والبلاغة ما بلغت حسن الاختيار ودقّة التركيب على مستوى الصيغ اللفظية والتركيبية. فالكلمة مفردة لا قيمة لها بعيدا عن مثيلاتها بل تتحدد قيمتها من خلال تموقعها في التركيب في سياق معين ، فتنتظم مع بعضها البعض كعقد يضم مجموعة من اللآلئ لتخرج في أحسن تصوير.

وفي التفاتة أخرى ، نوّه عبد القاهر الجرجاني في دلائله إلى قضية مهمة ، وهي قضية النحو البلاغي أو البلاغة النحوية ، فربط بينهما وجعل من النحو مفتاحا للمعاني وجلوتها لا مطاردة وتتبّعا للحركات الإعرابية ، " فعزا عبدُ القاهر الشعر ، وفي عقله إيمان راسخ ، بأنّ الفهم الأدبي ظلّ إلى عهده أماني مبهمة ؛ لأنّها لا تحسن البحث عن الأدوات. ومن أهمّ هذه الأدوات النحو. فالنحو ليس موضوعا يحفل به المشتغلون بالمثل اللغوية ، والذين يرون إقامة الحدود بين الصواب و الخطأ ، أو يرون الصواب رأيا واحدا. النحو مشغلة الفنانين و الشعراء ، والشعراء أو الفنانون هم الذين يفهمون النحو ، أو هم الذين يبدعون النحو. فالنحوُ إبداعٌ ، وقضية الإبداع في النحو كانت غريبة إلى حدّ ما على أذهان الباحثين قبل عبد القاهر"[18].

والمبدعُ إذاً هو الذي يجيد استغلال إمكانات النحو في صياغة جملة من التراكيب التي يحتاجها لترجمة ما في نفسه.

3ـ الاختيار والتأليف:

من ملامح التقارب بين أفكار الجرجاني والأسلوبيين المحدثين ، أنه أومأ إلى" الإمكانات الاستبدالية والقدرة التوزيعية ، وفي مقولتهم عن انتهاك اللغة ، وانحرافها عن النمط المألوف ، وذلك بإخضاعه المجاز لسيطرة النحو وعلاقاته التركيبية ، إن لم نقل جاوزهم بمقولته عن تجدد المواضعة تبعا لتجدد الاستعمال"[19].

وقد أدرك الجرجاني مفهوم الاختيار والتوزيع ، "إذ هما اللّتان تتكلفان بإنتاج الدلالة الشعرية ، وإن كانت الأولى محدودة بمنطقة المواضعة ، التي كان عبد القاهر يغادرها سريعا إلى منطقة (اللطائف)، لكن اللافت للنظر أنه نقل الاختيار من منطقة المعجم ، ووصله بالإمكانات النحوية ، لتكون خاضعة ــ هي الأخرى ــ للطاقات الفنية عند المبدع ، وبهذا يصبح الخطاب كله واقعا تحت طائلة الاختيارات في مستوى الإفراد ، أو على مستوى التركيب"[20].

و(الاختيار): من أهم مبادئ الأسلوبية ، وهو عملية واعية تمنح المتكلم عديد الخيارات للتعبير عن ما هو كامن في نفسه ، و قد لا تقتصر عملية الاختيار على الألفاظ فقط ، بل تمتد إلى التراكيب.

جعل عبد القاهر عملية الاختيار تتعلق بالألفاظ والنحو مثلما أشارت إليه الدراسات الأسلوبية ، وأشار إلى أن عملية الاختيار تتضمن المعجم والنحو معا[21] ، "فتتحد أجزاء الكلام ، ويدخل بعضها في بعض ، ويشتد ارتباط ثان منها بأول ، وأن تحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعا واحدا ، وأن يكون حالك فيها حال الباني يضع بيمينه هنا في حال ما يضع بيساره هناك ، وفي حال ما يبصر مكان ثالث ورابع يضعهما بعد الأولين..."[22].

ونبّه عبدُ القاهر الجرجاني منذ زمن بعيد إلى ماهية الاختيار ، بكونه عملية واعية وقصدية تيسّر للمتكلم بما يتوخّاه في صوغ كلامه للتأثير في السامع.

جعل الجرجاني للفظ قسمين: معنى معجمي وآخر استعمالي ، ليتولد لنا معنى ومعنى المعنى ،الذي يتحقّق عن طريق التركيب النحوي ، وما يوفّره من إمكانات للمبدع في اختيار أفضل الأنماط اللفظية والتركيبية.

فللتقديم والتأخير ـ على سبيل المثال ـ أثرٌ بالغٌ في تغيّر المعنى ، ويُمثّل الجرجاني لهذا بتعليقه على قوله تعالى: "وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا"[23] ، فهذه الآية تحمل معنيين:

الأول: معنى يفهم من ظاهر اللفظ ، وهو معنى أوّلي.

الثاني: معنى يُعقل من هذا المعنى الأوّلي (معنى المعنى).

فـ(الاشتعال) للشيب: يمثّلُ معنى، لكنه أُسند إلى الرأس لفظاً للدلالة على شمول الشيب لكل الرأس، بحيث لو قيل: (اشتعل شيبُ الرأس) لدلّ على أنّ هذا الشيب طغى جانباً من جوانبه مع بقاء السواد فيه، بينما لمّا قيل: (اشتعل الرأسُ شيبا)، فدلّ على أنّ الشيب شمل الرأس كلّه، فأتى كل جوانبه، ولم يبق من سواده شيءٌ، فتغيّر معنى البنية بسبب تغيّر موقعية وترتيب أجزاء الكلم[24].

ثالثاً:الانحراف (الانزياح):

الانحراف أو الانزياح: من أهمّ مفاهيم الأسلوبية الحديثة التي تميّز الكلام الشعري عن غيره، لما له من أثر واضح في النص الشعري وإيحائه، "وقد حظي باهتمام الأسلوبيين الذين رأوا فيها جوهر الأسلوب وخصوصيته، بل هو هوية المبدع وسماته الفارقة له عن غيره. فالخصوصية الأسلوبية التي تتشكّل أصلاً من مجموع الظواهر والأنماط التعبيرية التي يؤثرها الناظم أو الناثر تعكس تفرّده الفكري ونسقه التعبيري الذي ينضوي على خصائصه النفسية والشعورية"[25].

فقد ربط البعضُ الانزياح بالاستعارة والمجاز، وربطه آخرون بالغموض والحذف والتقدير، وغيرها. واصطلح عليه روادُ الدّراسات النقدية العربية بالانزياح كبديل لكلمة الانحراف لسلبية إيحائه[26].

نبّه الجرجاني في أكثر من موضع عن لطف الاستعارة وبديعها وغرابتها وعلاقتها بالمتلقي ممثلا لها بقول أحدهم:

سالت عليه شعابُ الحيّ حين دعا أنصاره بوجوه كالدنانير

والمراد في قوله ها هنا أنه مطاعٌ في حيّه، منصورٌ من قبل قومه، فإن سألهم ودّهم كالسيول يحضرون من هنا و هناك[27].

ففي الاستعارة من اللطف والحسن والحلاوة ما فيها بسبب الغرابة التي أنتجتها،"وقد تحققت غرابةُ الاستعارة ولطفها من خلال سياقها، وبخاصة التقديم والتأخير،إذ إنّ النظم يشكّل إسهاماً فاعلاً في تكوين الغرابة، لأنّ ذلك يحقّق نشوة، والنشوةُ شيءٌ حسيٌ تنبسط له النفسُ الإنسانيةُ، وتظلّ مشدودةً إليه، فنشوة المتلقي عمليةٌ قائمةٌ على اللّذة التي يُشكّلها التقاءُ المتلقي مع نصّ يُمثّل غرابة من خلال أساليبه الخاصة به"[28].

ولغرابة الاستعارة دورٌ كبيرٌ في إثارة ذهن المتلقي بوضعه في حيرة من أمره، لمعرفة الجديد لا إلى معرفة ما هو مألوف ومعروف. فالنفسُ الإنسانية تميل إلى ما هو مخالفٌ

لتوقعاتها ؛ أي إلى ما يشدّها إليه فتنجذب له وتتفاعل معه ، فلا تقتصر فصاحة النظم ههنا على تخيّر الألفاظ وتفخيمها ، بل على تخيّر مواضعها وطرق تأليفها وجودة سبكها ، وتعلّق معانيها ببعضها البعض ، وتلاحمها بعيدا عن التعمية والتعقيد والابتذال.

رغم اختلاف الجغرافيا والتاريخ إلّا أن الأفكار تلتقي ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن فكر الجرجاني كان سابق لأوانه ، وعليه فإنه عبد القاهر الجرجاني" يعدّ أول باحث عن بلاغة الأسلوب ، وألوانه وخصائصه أو ليس في ذلك كله ما يجعلنا نجزم جزما قاطعا. بأن بين الأسلوبية وفكر عبد القاهر الجرجاني في النظم صلة قوية وعلى الصلة المباشرة بين الأسلوبية وخصائص البلاغة العربية"[29].

إنّ الجرجاني وبفكره اللامع و إفادته ممن سبقوه أسّس لأفكار سابقة لزمانها ، تضاهي ما وصل إليه الدرسُ الأسلوبيُ الحديثُ. فكانت له وقفات متميزة وبراعة في التحليلات الأسلوبية تماثل ما أنجزه المحدثون الغرب.

خاتمـــــــة:

بعد هذه الدراسة التي أجريتها في ثلاثة مباحث ، والتي حاولتُ جاهدة أن تكون ذات فائدة لكلّ دارس لأن يجد حضورا لنظرية النظم في الدرس اللغوي والبلاغي الحديث ممثلاً في المنهج الأسلوبي. فإني أركن إلى خاتمة أسجّل فيها أهمّ النتائج التي أودعتها في هذا البحث ، ويمكن تلخيصها فيما يلي:

1 ـ أنّ عبد القاهر الجرجاني قد بلور نظرية عامّة في البلاغة " النظم" ، ردا على التيار الذي اهتمّ باللفظ دون المعنى أو العكس ، وأنّ البلاغة الحقيقية هي التي تدرس اللفظ والمعنى معاً.

2 ـ أنّ " النظم" في فكر الجرجاني يرتدّ إلى النحو كما يرتدّ إلى البلاغة ؛ فسؤال البلاغة ينعطف على سؤال النحو من خلال سؤال المعنى. وأن ليست الأسلوبية في الألفاظ وليست في التركيب ، إنما هي في آليات الارتباط الحادثة التي تتوالى في الكلام توالياً نسقياً.

3 ـ أنّ للمنهج الأسلوبي طريقته في استعمال اللغة ؛ فهي لا تعتمدُ على اللغة فقط ،بل تتجاوز ذلك إلى كيفية استخدام اللغة في خدمة المبدع / المتكلّم.

4ـ الأسلوبية تعبّرُ عن القضايا الجمالية في البلاغة والنقد لكشف أسرار النصّ الأدبي ، وذلك باعتماد المهارات اللغوية للعبور إلى دراسة النواحي الوجدانية من خلال التكامل بين "النظم" في جانبه اللغوي والبلاغي والأسلوبية الحديثة.

5- المنهج الأسلوبي الحديث لا يبتعدُ كثيرا عن المنهج البلاغي في تحليل النصوص في تراثنا النقدي ، مع وجود بعض التباين في التوظيف اللغوي.

6 ـ قام البحثُ بتطبيق المفاهيم التي توصّل إليها عبد القاهر الجرجاني ، بقصد إيجاد حضور آرائه وأفكاره ضمن الدراسات اللسانية المعاصرة ، وخاصة في المنهج الأسلوبي ، ذلك أن ما جاء به عبد القاهر غريب عن النقد في القرن الخامس الهجري . 7 ـ قامت هذه الدراسةُ بإلقاء الضوء على أهمّ أوجه التقارب والتمايز بين البحث البلاغي والنقدي في تراثنا العربي وبين الأسلوبية في العصر الحديث.

8 ـ يُحسبُ لعبد القاهر الجرجاني أنّه تميّز عن غيره باتّساع رؤيته وبحثه ، فشمل بحثه الدرس اللغوي والأدبي معاً على عكس الباحثين الأوروبيين الذي حصروا اهتماماتهم في الدرس اللغوي ؛ يبحثون في فلسفته ، وفي ظاهرته وقوانينه وقواعده.

5-الهوامش

[1] الزيادي تراث حاكم ، الدرس الدلالي عند عبد القاهر الجرجاني ، دار صفاء للنشر والتوزيع ،عمان ، الأردن ،ط:1 ، 1432هـ 2011م ، ص: 109.

[2] خفاجي محمد عبد المنعم وآخرون ، الأسلوبية والبيان العربي ، الدار المصرية اللبنانية ، مصر ، ط:1 ، 1412 _ 1992 ، ص:05.

[3] ينظر: عبد المطلب محمد ، البلاغة والأسلوبية ، مكتبة لبنان ناشرون ، لبنان ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، مصر ، ط:1 ، 1994 ، ص:23.

[4] ربايعة موسى سامح ، الأسلوبية مفاهيمها و تجلياتها ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، لبنان ، 1993م ،ص:12.

[5] الجرجاني عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، تحقيق وتعليق: شاكر محمود محمد ، مكتبة الخانجي ، مصر ،(د.ط.ت) ص:468 _469.

[6] امرؤ القيس أبو وهب بن حجر ، الديوان ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار صادر ، بيروت ، لبنان(د.ت.ط) ، ص 29.

[7] الجرجاني عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، ص: 362_363.

[8] حماسة محمد عبد اللطيف ، الدلالة والنحو- مدخل لدراسة المعنى النحوي _ الدلالي ، دار الشروق ، القاهرة ، مصر ، ط:1 ، 1420 — 2000 ، ص:11.

[9] المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

[10] ينظر: عبد المطلب محمد ، البلاغة و الأسلوبية ، ص:43.

[11] صمود حمادي ، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة)، منشورات الجامعة التونسية ، تونس ، 1981 ، ص 501.

[12] أبو تمام حبيب بن أوس الطائي(ت231ه) ،الديوان ، شرح الخطيب التبريزي ،تحقيق: محمد عبده عزام ، دار المعارف ، القهرة ، مصر ، ط2 ، 1969م ، 123/2.

*الأرى: العسل ، اشتارته: جنته من الخلايا ، العواسل: التي تطلب العسل ، وهو في وصف القلم.

[13] الجرجاني عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، ص:371.

[14] لا يعلم قائله ، وينسبه قوم للفرزدق ، ينظر: التبريزي، زكريا بن يحي بن علي الشهير بالخطيب(ت502ه) ،شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ،عالم الكتب ، بيروت ، لبنان (د.ت.ط) ، 41/2.

[15] ينظر: دلائل الإعجاز ، ص 344 ، وابن يعيش موفق الدين ، شرح المفصّل ، دار الطباعة المنيرية ، القاهرة ، مصر(د.ط.ت) ، 99/1.

[16] سورة هود: الآية 44.

[17] الجرجاني عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، ص:45.

[18] عبد اللطيف محمد حماسة ، النحو و الدلالة ،مدخل لدراسة المعنى النحوي _ الدلالي ، ص:164.

[18] عبد المطلب محمد ، البلاغة والأسلوبية ، ص:02.

[19] المرجع نفسه والصفحة نفسها ، ص:02.

[20] عبد المطلب محمد ، قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني ، مكتبة لبنان ناشرون ، لبنان ، الشركة المصرية العالمية للنشر ،ط:1 ، 1995 ، ص:10_11.

[21] ينظر: ربابعة موسى سامح ، الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها ، ص: 28.

[22] الجرجاني عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، ص 93.

[23] سورة مريم: الآية 04.

[24] ينظر: الجرجاني عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، ص:100 ، 101.

[25] ربابعة موسى سامح ، الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها ، ص: 44.

[26] ينظر: المرجع نفسه ، ص:44_45.

[27] ينظر: دلائل الإعجاز ، ص 74.

[28] ربابعة موسى سامح ، الأسلوبية مفاهيمها و تجلياتها ،ص:79.

[29] خفاجي محمد عبد المنعم وآخرون ، الأسلوبية والبيان العربي ،ص:07.

المصادر والمراجع:

الزيادي تراث حاكم ، الدرس الدلالي عند عبد القاهر الجرجاني ، دار صفاء للنشر و التوزيع ، عمان ، الأردن ،ط:1 ، 1432ه 2011م.

خفاجي محمد عبد المنعم وآخرون ، الأسلوبية والبيان العربي ، الدار المصرية اللبنانية ، مصر ، ط:1 ، 1412 _ 1992.

التبريزي ، زكريا بن يحي بن علي الشهير بالخطيب(ت502ه) ،شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ،عالم الكتب ، بيروت ، لبنان (د.ت.ط)

ابن يعيش موفق الدين ، شرح المفصّل ، دار الطباعة المنيرية ، القاهرة ، مصر(د.ط.ت)

عبد المطلب محمد ، البلاغة والأسلوبية ، مكتبة لبنان ناشرون ، لبنان ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، مصر ، ط:1 ، 1994

ربابعة موسى سامح ، الأسلوبية مفاهيمها و تجلياتها ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، لبنان ، 1993م ،ص:12.

الجرجاني عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، تحقيق وتعليق: شاكر محمود محمد ، مكتبة الخانجي ، مصر ،(د.ط.ت) ص:468 _469.

عبد اللطيف محمد حماسة ، الدلالة والنحو- مدخل لدراسة المعنى النحوي _ الدلالي ، دار الشروق ، ، القاهرة ، مصر ، ط:1 ، 1420 — 2000 ،

عبد المطلب محمد ، قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني ، مكتبة لبنان ناشرون ، لبنان ، الشركة المصرية العالمية للنشر ،ط:1 ، 1995 ،

صمود حمادي ، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة)، منشورات الجامعة التونسية ، تونس ، 1981 ، ص 501.

أبو تمام حبيب بن أوس الطائي(ت231ه) ،الديوان ، شرح الخطيب التبريزي ،تحقيق: محمد عبده عزام ، دار المعارف ، القهرة ، مصر ، ط 2 ، 1969م.

امرؤ القيس أبو وهب بن حجر ، الديوان ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار صادر ، بيروت ، لبنان(د.ت.ط)